وقامت أمة الإسلام على خطة دقيقة وتوقيت محكم

ومنذ غادر محمد قباء إلى منزله الذى اختاره لنفسه بين بنى مالك بن النجار سار فى عمله قدما كأنه قد وضع خطة محكمة للعمل من زمن بعيد ، فما حانت فرصة العمل حتى مضى لوجهته . كل خطوة تؤدى إلى التى تليها ولا وقت للضياع ، كأنما كان الرسول ﷺ يشعر أن منيته تنتظره على عشر سنوات وبضعة شهور هجرية ، وأنه لابد أن يفرغ من رسالته كاملة قبل ذلك الأجل ، فلم نعرف فى التاريخ رجلاً بلغ إحكامه فى التوفيق ودقته فى التقدير وإقباله على العمل المضنى على خطة واضحة مثل محمد .

عاد اليثربيون إلى مدينتهم فرحين بما آتاهم الله ، وعاد معهم معلمهم ومقرئهم الصادق المتفانى فى الله ورسوله مصعب بن عمير ، وعاد محمد ﷺ إلى داره وقد اطمأن قلبه إلى أنه وجد الجماعة القوية التى ينشىء فيها أمة الإسلام .

ولقد كانت السنوات الثلاث التى انقضت بين موت أبى طالب ثم خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها من أشق مامر على رسول الله ، فقد وقف وحده تقريباً أمام حائط الكفر الهائل ، وكانت وفاة خديجة قد شقت عليه ، فهذه السيدة المباركة رافقته خمس عشرة سنة قبل البعثة كلها سنوات حب ومودة ، وأمن وهدوء ثم عاشت معه تسعاً بعد البعثة كلها تعب وجهد وصبر جميل ، ولكن خديجة لم تشك يوماً ولا هى ضاقت بما تعانى منه إلى آخر حياتها ، وظل محمد يذكر لها ذلك ويرق كلما جاء ذكر خديجة ، وظل فراغها فى نفسه خالياً بقية عمره بعدها .

ولكن محمداً لم يشك لحظة فى نصر الله له وأن الفرج آت لا ريب ، ألم يقل الله له فى سورة الضحى ﴿ **وَلَسَوفَ يعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضَىٰ** ﴾ فها هو ذا اليوم يعطيه أجمل العطاء وهاهو ذا اليوم يرضى الرضا كله . وحتى فى أحلك أيام المصاعب كان واثقاً من أن الله سيعطيه وسيرضى . وهل مرت على رسول الله ساعات هى أقسى من ساعات خروجه من الطائف وقد آذته ثقيف وأغلقت قلوبها دونه ، وأغرت به سفاءها يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه فاوى إلى جدار حديقة خارج البلد وجلس وخاطب ربه أجمل خطاب وأعمقه إيماناً وأقوى ثقة فى الله ونصر الله ، لقد قال محيى الدين بن عربى بعد أن فرغ من « الفتوحات المكية » [كل هذا الذى قلت لا يعدل حرفاً مما خاطب به رسول الله ربه ، ثم يتلو نص الدعاء ويصيح : يامن أشرقت بنور وجهك الظلمات أعطنى قبساً من نور محمد فإنى فى ظلام] . .

قال رسول الله ﷺ : « **اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك** » .

والعدو الذى يتجهمه هم أهل الطائف .

أما العدو الذى ملكه أمره فهم كفار قريش .

وكانت رياسة قريش قد صارت بعد عبد المطلب إلى ابنه الزبير قليلاً ثم صارت إلى عبد العزى عم محمد أيضاً وهو أبو لهب عدوه وعدو الإسلام .

ولم يستطع محمد دخول مكة عائداً من الطائف إلا فى جوار المطعم بن عدى بعد أن رفض الأخنس بن شريق ، وسهيل بن عمرو أن يجيراه .

وبعد العودة إلى مكة كان الإسراء والمعراج ، وقد أراد الله بهما أن يطمئن فؤاد محمد ، وهل هناك تكريم هو أعلى من الصعود إلى السماء والاقتراب من نور رب العرش والصلاة بالنبيين جميعاً إماماً ؟ .

* * *

ومن بديع صنع الله للإسلام وأمته أن محمداً بعد الطائف عرض دعوته على القبائل خارج مكة دون أن يخطر بباله أن يقصد يثرب .

ذهب إلى بنى عبد الله من كندة فى منازلهم وأتى بنى حنيفة فى منازلهم وبنى عامر بن صعصعة فى ديارهم فلم يستمع أحد منهم إليه .

حتى جاءه أهـل يثـرب إلى داره وقلوبهم على أكفهم يطلبـون دخـول الإسلام ، ولم يدخلوا فيه فحسب ، بل عرضوا أن يكونوا هم أمة الإسلام وأن يكون بلدهم مهده .

مامعنى ذلـك بالنسبة لموضوعنا وهو قيام أمة الإسلام وبناؤها ؟ معناه أن الأمـة هى التى تختار من يتولى أمرها ، ولا يكون من سيتولى الأمر هو الذى يفرض نفسه .

هكذا كان فى تقدير الله لأمة الإسلام وهى أمته .

هى التى تختار لنفسها .

لقد أراد محمد أن يختار أمته ، ولكن الذى حدث هو أن الأمة هى التى اختارته .

وذلك أساس لا ينبغى أن تتخلى عنه أمة الإسلام . إنها هى الأساس ، وهى التى تختار ، ولو كان المختار هو رسول الله .

هكذا قدر الله رب الإسلام وأمة الإسلام .

فأين هذا مما يقوله شيخ مثل ابن جماعة الذى زعم أن الأمة ينبغى أن تخضع لمن يفرض نفسه عليها ولو كان سفاكاً قاتلاً غاصباً .

وأخذ الصحابة يهاجرون إلى المدينة وينزلون على إخوانهم من الأنصار . ولأول مرة فى تاريخ العرب تستقبل جماعة من العرب ناساً غرباء عليها بالترحاب الذى تلقى به أهل المدينة أصحابهم الذين هاجروا إليهم ولكن المجير هنا هو الله سبحانه وتعالى ، وكل أمة الإسلام فى جواره لأنها أمته مادامت سائرة فى طريقه .

وظل محمد فى مكة آمناً فى رعاية الله ، يرى صحابته يهاجرون إلى الأمن ويتبوأون الدار والإيمان وهو لا يشك فى النصر القريب .

ويشاء الله سبحانه أن يزيده أمناً واطمئناناً إلى المصير الذى ينتظره فى مهجره الجديد ، فينزل عليه الآيات التالية من سورة الإسراء وهى من آخر ماأنزل على محمد فى مكة :

﴿ أقم الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمس إلىٰ غَسَقِ اللَّيلِ وَقُرْآنَ الفجر ، إنَّ قُرْآنَ الفَجرِ كانَ مَشْهوداً ، وَمِنَ اللَّيل فتهَجَّد به نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أنَ يَبعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحمُوداً ، وَقُل رَّبِ أدخلنى مُدخَلَ صِدقٍ وَأخرجنى مُخرَجَ صِدقٍ واجْعَلْ لى من لَّدُنكَ سُلطَاناً نَّصِيراً ، وَقُل جَاء الحَقُّ وَزَهَق البَاطِلُ إن البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ، وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمؤمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالمِينَ إلاَّ خَسَاراً ﴾ . (الإسراء : الآيات ٧٨ ـ ٨٢) .

فانظر كيف يأمر الله رسوله بإقامة الصلاة قبل طلوع الشمس وساعة الغسق ويأمره بصلاة الليل ليطمئن بها قلبه .

ثم انظر كيف يأمره بأن يسأل الله أن يدخله (المهجر الجديد) مدخل صدق قبل أن يسأله الخروج (من مكة) مخرج صدق وجميل أن يأمره الله بأن يسأله صدق المدخل إلى المدينة قبل أن يسأله صدق المخرج من مكة .

ويبشره بأن الحق قد جاء وأن الباطل قد انتهى أمره . وهذه ليست بشارة له وحده بل للبشر أجمعين ، فقد جاء الحق للدنيا كلها ، وزهق الباطل للعالمين أجمعين .

* * *

وأذن الله سبحانه لمحمد رسول الله ﷺ فى أن يهاجر من مكة إلى المدينة ، فخرج من بيته ليلاً فى الخبر المعروف على الأغلب فى اليوم الأول من ربيع الأول السنة الأولى للهجرة . وهذا التاريخ يقابل يوم ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وهو بحسب جداول التقويمات التى لدينا يوم اثنين ، ويقول ابن اسحق إنه خرج من الغار ليلة الاثنين لأربع خلون من ربيع الآخر ، والأقرب إلى القول أنه وأبا بكر خرجا من الغار فى اتجاه المدينة قبيل فجر الرابع من شهر ربيع الأول (على هذا الحساب) لأن الليالى فى حساب العرب تسبق النهار ، وعلة ذلك أن اليوم عندهم ينتهى بغروب الشمس ، وبعد ذلك يبدأ اليوم التالى وليله سابق على نهاره حتى يكتمل اليوم أربعاً وعشرين ساعة عند الغروب التالى . فإذا كان قد دخل الغار بعد نصف ليل غرة ربيع الأول فيكون قد خرج منه مع فجر اليوم الرابع من ربيع الأول وهو يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ٦٢٢ م ، والمراجع تقول إنه

يوم اثنين ، وهذا لا يصح إلا إذا كان رسول الله وصاحبه قد قضيا فى الغار أسبوعا وهو أمر لا يستقيم .

ثم تجىء مشكلة تاريخ الوصول إلى قباء ، فمراجعنا تقول إنه وصل إليها يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول وهو الرابع والعشرون من سبتمبر ٦٢٢ م وهو يوم أربعاء لا يوم اثنين . ثم إن القول بأنه خرج من الغار يوم ٤ ربيع الأول ووصل إلى قباء ١٢ ربيع الأول عسير على القبول ، لأن معناه أنه هو ومن معه قطعوا بحسب وصف الطريق الذى لدينا فوق الأربعمائة والخمسين كيلو مترا فى ثمانية أيام ، أى بمعدل يزيد على ٥٠ كيلو متراً فى اليوم الواحد ، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً ، اللهم إلا إذا كانا قد سارا ليلاً ونهاراً دون توقف ولم يقل بهذا أحد من الإخباريين ، وإذا كان ولابد من القول بأنه ﷺ وصل قباء فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول (وهو يوم ميلاده كذلك) فلابد أن نصحح تاريخ الخروج من مكة أو تاريخ الخروج من الغار ، وربما كان الأصح أن يقال إن الأول من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة هو يوم الخروج من الغار ، ويبقى بعد ذلك أن الثانى عشر من ربيع الأول من نفس السنة لا يمكن أن يكون يوم اثنين ، إنما هو يوم أربعاء على ماقلناه .

والمهم لدينا أن رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق وصلا قباء مع دليلهما عبد الله بن أرقط أو ابن الأريقط ضحى الثانى عشر من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة وذلك يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م . وغريب من الأمر أن هذا الدليل الناصح . . ابن أرقط أو ابن الأريقط لم يسلم ومات كافرا فى حين أن سراقة بن جُعْشُم وهو الذى أراد اللحاق برسول الله وقتله أسلم يوم فتح مكة .

ويهمنا هنا مايذكره ابن كثير فى تاريخه من أن رسول الله قبل خروجه من مكة كان قد واعد عبد الرحمن بن عوف على أن يلقاه على مسافة من قباء بثياب جديدة بيض له ولأبى بكر ، وعبد الرحمن بن عوف هاجر قبل محمد ، فلعله أعد الثياب

وعندما بلغت الأخبر أهل قباء أن رسول الله وأبا بكر قد وصلا إلى العرج ونزلا القاعة على ثلاثة مراحل ـ أى ثلاثة أيام من المدينة انتشر الخبر وفاض . وكان ركب الرسول قد اطمأن وطامن من سيره بعد أن فرغ من ناحية الفرع (بضم الفاء والراء) فقد دخل الركب فى منطقة المدينة ولم يعد هناك خطر من المكيين

غير أن هذا الاهتمام من رسول الله بأن يدخل المدينة فى ثياب جدد ناصعة البياض لابد أن يستلفت نظرنا ، فإن حكايات الأنبياء كما تروى لنا ترينا إياهم شعثاً فى ثياب خشنة غير ذات هيئة من الصوف ، وهذا مقبول ومعقول ، ولكنه غير معقول ولا مقبول بالنسبة لرسول الله .

ذلك أن الله سبحانه برأ محمداً على صورة تأخذ القلوب فعلاً . وليس من الضرورى أن نتابع هنا صفة محمد كما تتوارد فى النصوص عن على بن أبى طالب وأنس بن مالك وأبى هريرة والبراء بن عازب ومن فى طبقتهم من أجلاء الصحابة ، فهذه ليست صورة إنما هى تصور فقد جمعوا فيها المحاسن كما تصوروها على نحو فيه تكلف حتى لقد قالوا إن عنقه كأنه عنق دمية فى صفاء الفضة وقالوا من لبته (بفتح اللام وهى آخر الرقبة) إلى سرته شعر يجرى كالقضيب ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره إلى آخر هذه التفاصيل التى أملتها المحبة وصدق الولاء ، غير أنك إذا جمعت تفاصيل هذه الملامح كما ترد فى كتب السيرة وخاصة شمائل الترمذى والشروح المتأخرة كالروض الأنف للسهيلى وشرح المواهب اللدنية للزرقانى اختلط عليك الأمر ولم تر شيئاً واضحاً ، ولذلك فقد قلت إن هذا تصور وليس بصورة .

ولكن الثابت أن محمداً كان وسيماً قسيماً بهى الصورة وضيئاً ذا هيئة متناسبة جميلة توقع فى قلب من يراه المحبة والهيبة فى آن معا ، وكان وجهه ينطق عن شخصية عظيمة مهيبة حقاً ، وقد زان وجهه شعر غزير كان الرسول شديد الحرص على ترجيله وتهذيبه وإرساله وراء أذنيه .

وقد أكمل رسول الله هذه الصورة البديعة التى برأه الله عليها بعناية دائمة بمظهره دون تكلف أو ترف ، فما عرفنا من ثيابه إلا القطن الأبيض والصوف البسيط ، وكلاهما فى غاية النظافة ، فقد كان ﷺ يغتسل مرة على الأقل فى اليوم غير الوضوء السابغ خمس مرات على الأقل فى اليوم ، وكان يغسل ثوبه بيده مرتين فى اليوم فى غالب الأيام ، وكان حريصا على أن يكون هذا الهندام البسيط دائماً فى أحسن صورة ، وكان لا يطيق وضراً فى بيته حتى كان يكنسه بيده ولا يأكل أو يشرب إلا نظيفاً بل كان لا يأكل شيئاً فيه ثوم أو بصل ، فكان يرده ويقول : « كلوه أنتم ، إنما أنا رجل أناجى » أى أنه يتحدث إلى الناس من قريب ، ولا يحب ريح هذه الشجرة . . أى شجرة الثوم أو البصل .

والسواك وهو فرشة الأسنان الطبيعية لم يستعمله أحد فى التاريخ كما استعمله محمد ، لأنه كان حريصاً أشد الحرص على بهاء أسنانه وطيب نفسه ، لقد كان يقبل عليه حتى خاف بعض الصحابة أن يكون الله سيجعله فرضاً على المسلمين ، وإنه لمن غرائب الأخبار أن آخر شىء طلبه رسول الله فى مرضه وقبل أن يدخل فى غيبوبة الموت هو السواك فناولته إياه عائشة رضى الله عنها فاستن به كأحسن مارأته يستن بسواك ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شَخَص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

هذا كلام عائشة رضى الله عنها .

* * *

لبس محمد ثوبه الجديد بعد أن اغتسل فأحسن الاغتسال ، ثم تقدم ومعه أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأريقط ، وأقبل المهاجرون والأنصار يرحبون به ولم يكن الكثيرون قد رأوه ، وتكاثر الناس ، ودخل قباء فى سمت

ووقار فى الضحى ، واستقر فى بيت كلثوم بن الهدم وهو من كبار شيوخ بنى عمرو ابن عوف أصحاب قباء وهم من الأوس وكان هذا الشيخ عزباً لم يتزوج ، وقد نزل لهذا فى بيته عزاب المهاجرين وسمى البيت بيت العزاب .

ولكنه كان يجتمع بالناس فى دار أخرى ، هى دار سعد بن خيثمة وكان من سروات بنى عمرو بن عوف وجدير بالملاحظة أن بنى عمرو بن عوف من الأوس ، كان منهم نفر فى بيعة العقبة ، وسعد بن خيثمة كان نقيباً . ولكن بنى عمرو بن عوف كانوا دائمًا موضع قلق لرسول الله ﷺ بعد ذلك ولهذا أطال الرسول المقام فيهم حتى يزيل مافى نفوس بعضهم من ميل إلى الفتن وبنى فى منازلهم أول مسجد بنى فى الإسلام ، وهو المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء .

مكث الرسول فى قباء أربعة أيام وهى فى نظر الكثيرين فترة طويلة ، ولكن الحقيقة أنه استوعب خلال هذه الأيام معلومات كثيرة عن الأحوال فى المدينة ، ومن خصائص محمد أنه كان يجيد الإنصات ، وكان يعى ممن يحدثه كل شىء ولهذا لم يكن هناك أعلم منه بالعرب والدنيا من حولهم ، وأن الإنسان ليعجب من دقيق ملاحظاته واتساع معلوماته عن العرب خاصة ، كان يعرفهم قبيلة قبيلة وأين تعيش ومن رؤساؤها ، ومامموقفهم من الإسلام وماموقفهم من قريش وعلاقاتهم بمن حولهم تقابل ذلك حقيقة كبرى وهى أنه كان قليل الكلام ، فإذا تكلم قصد إلى مايريد رأساً فى أقصر عبارة وأبلغها . كان يفضل السماع على الكلام وماأحب أحداً ـ أيا كان ـ أن يتحدث إليه إلا أعاره سمعه وصبر عليه حتى يقول كل مايريد أن يقول ثم يجيبه بما ينبغى أن يقال .

لهذا لم يغادر ديار بنى عمرو بن عوف إلا بعد أن عرف تماماً ماذا سيعمل وكيف سيعمله ، فى تلك الأيام القليلة عرف محمد أمته وحدثه عمر ومصعب بن الزبير والنقباء حديثاً طويلاً عنها فاستوثق من أمر نفسه وعقلها وتوكل . . .

وقد نهض محمد من ديار بنى عمرو بن عوف الأوسيين يوم جمعة وهذا مؤكد ، لأن صلاة الجمعة ستدركه فى منازل بنى سالم بن عوف من الخزرج وهم المعروفون ببنى الحبلى أو بنى سالم الحبلى أو بالحبلى (بضم الحاء فى كل حالة) ، وهم قوم عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فيما بعد .

ثم سار وهو على ناقته المشهورة المسماة (بالقصواء) . . وبعد أن صلى الجمعة بنى الناس مسجداً فى ذلك الموضع عرف بمسجد رانوناء نسبة إلى وادى رانوناء الذى يمر بمنازل بنى سالم . .

ثم عرض عليه بنو سالم أن يقيم عندهم ، وقالوا عبارة ستتكرر كثيراً فى ذلك المسير التاريخى : أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة أى أقم عندنا ونحن قادرون على أن نفى لك بما عاهدناك عليه فى العقبة الثانية .

* * *

ويكون رد رسول الله : خلوا سبيلها فإنها مأمورة والإشارة هنا إلى القصواء .

ومامعنى : أنها مأمورة ؟

ألسنا جميعاً مأمورين من الله سبحانه فى كل مانفعل ؟

ولماذا نفسرها على أنها مأمورة من الله سبحانه وتعالى ؟ ولماذا لا نفسرها على أنها مأمورة من محمد ، لأنه بعد أن درس أحوال المدينة عرف أين يريد ، فهو لا يريد أن ينزل فى العدد والعدة والمنعة وليس هو برئيس دنيوى يبحث عن القوة إنما هو نبى ورسول وشاهد ومبشر ، وسنراه ينزل فى حيث ينبغى أن ينزل النبى

الشاهد المبشر النذير وأين يكون السراج المنير إلا وسط المدينة حتى يصل نوره إلى أطرافها جميعاً على سواء ؟ .

إلى هناك كان يقصد محمد . .

وهذا ماكان يريده بقوله : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . .

لقد كان يريد أن يستقر فى وسط المدينة وسط السهل المحصور بين الحرتين أو اللابتين ولا يريد أن ينزل عند قوم ذوى جرأة على القتال وميل للحرب ، فقد كان يستطيع أن ينزل عند بنى سالم الحبلى أو عند بنى بياضة ولكنه عرف أن هؤلاء أيضا بينهم وبين جيرانهم خصومات وثارات ، ورفض أن ينزل فى منازل بنى ساعدة فهناك سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وهما زعيمان فيهما تطلع للرياسة وعصبية وضعف عن ضبط النفس ، ولم ينزل كذلك عند بنى الحارث بن الخزرج فقد كان لهم وزن سياسى خفيف فى المدينة وهم قوم سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحه ، ولكنه استقر عند بنى مالك بن النجار دون بنى عدى ابن النجار . فقد كان بنو النجار عموماً هم من أضخم الأحلاف القبلية فى المدينة . وكانت فيهم دماثة وعقل وحكمة وهم قوم أسعد بن زرارة وعمارة بن حزم ومعاذ بن الحارث ونفر آخر كثير ممن ستتجلى مواهبهم فى أمة المدينة وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة بالذات أثير على رسول الله ﷺ لأنه كان من السابقين الأولين ممن دخلوا الإسلام من أهل المدينة وهو أول من اتخذ مصلى فى أرضه ، ولولا أنه مات قبل بدر بقليل لكان له شأن عظيم . .

* * *

ويستوقف نظرنا أن ناقة رسول الله ﷺ عندما استقرت فى منازل بنى مالك ابن النجار وجلست ووضعت جِرَانَها فنزل عنها رسول الله ﷺ ، فاحتمل

أبو أيوب خالد بن زيد رحل رسول الله فوضعه فى بيته وقال الرسول : المرء مع رحله كأن الأمر كان مقرراً بين محمد وأصحابه قبل أن يغادر قباء ثم نزل على أبى أيوب . وفى دار أبى أيوب أقام الرسول صلوات الله عليه حتى ابتنيت له غرفة التى أقام فيها بقية عمره فى الركن الجنوبى الشرقى من المسجد .

ويبدو أن رسول الله ﷺ استراح لأسعد بن زرارة سيد بنى مالك بن النجار وقومه بنى مالك بن النجار فقد كان أبو أمامة شاباً ذا همة وعقل وقلب مال قلبه إلى الإسلام منذ العقبة الأولى وأسلم على يد مصعب بن عمير وحضر العقبة الثانية وكان من النقباء وكان معه فى بيعة العقبة تلك أحد عشر رجلاً من قومه من بينهم أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب الذى نزل عنده وعمارة بن حزم ، وحضرها معه ستة من بنى عمومتهم بنى الحارث بن الخزرج فيهم سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة الشاعر الذى كان أعظم شعراء الرسول وسيستشهد فى مؤته . .

هنا بين قوم كلهم حب للإسلام وإيمان به نزل الرسول ، ولنلاحظ هنا أن أحدا من المؤرخين لم يذكر فى هذه المناسبة أن بنى النجار كانوا أخوال محمد لأن الخؤولة هذه شىء قديم ولا يكاد أحد إذ ذاك يذكر سلمى بنت عمرو بن زيد ابن لبيد من بنى عدى بن النجار التى تزوجها هاشم بن عبد مناف وأنجب منها أولاداً منهم عبد المطلب جد محمد ، ويثبت لنا بهذا أن محمداً لم ينزل ببنى النجار لأنهم أخواله كما يقولون فهم ليسوا أخواله أصلاً . ثم إن سلمى كانت من بنى عدى بن النجار وهؤلاء بنو مالك بن النجار .

نقول هذا لأننا مادمنا نتكلم عن الإسلام وأمته الجديدة فلا محل لعمومة ولا خؤولة ولا قرابة إنما هو الإسلام وأمة الإسلام وقد ظهرت مسألة الخؤولة هذه فيما بعد ابتكرتها الأجيال المتأخرة ، وابتكرت تلك الأجيال أيضاً قصة دخول الرسول المدينة من ثنية الوداع وابتكروا أغنية طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

فإن محمداً دخل المدينة من جنوبها الغربى بتعبير أدق من ناحية قباء ، وثنية الوداع فى شمال المدينة ولكى لا نفجع الناس فى هذه الأسطورة العزيزة عليهم يمكن القول بأن هذه الأنشودة وضعت وأنشدت فى عودة الرسول ﷺ فيما بعد من إحدى غزواته فى الشمال .

وشىء آخر جعل الرسول ﷺ يقرر النزول فى ديار بنى النجار ، وهو أن منازلهم كانت فى وساع من الأرض كانت لهم مزارعهم ونخيلهم وأطامهم أى حصونهم . ولكن كانت هناك فى ديارهم أراض أخرى واسعة بور لا يزرعها أحد ومن ثم لم يكن يملكها أحد . وكان الرسول قد تفاهم مع أهل المدينة ربما فى قباء على أنه له التصرف فى أى أرض بور غير عامرة ، وكان رسول الله فى حاجة إلى هذه الأرض كان يريد أن يجد أرضاً لمن هاجر قبله ومعه وبعده من القرشيين لكى يقيموا لأنفسهم دوراً ويزرعوا أرضاً ، أما هدفه الثانى وهو الأهم فهو إنشاء المسجد . .

والجميل فى سيرة الرسول أننا نراه منذ وطئت قدماه قباء يتصرف كأنه يسير على خطة محكمة وضعها بإحكام من قبل . وعندما جاءت الفرصة سار فى التنفيذ قدما كل خطوة تعقبها خطوة والخطوات تتلاحق وتتكامل وبناء الأمة يسير بترتيب وإحكام وتوقيت دقيق كأنما كان محمد يعلم أنه لم تبق له من سنوات العمر إلا عشر سنوات وبضعة شهور هجرية ولابد له أن يتم رسالته كاملة خلال هذا الأمد القصير فليست هناك ساعة واحدة للضياع وفعلاً : خلال هذه الفترة لم يسكن محمد لحظة من نهار وماكان يصيب من النوم أكثر من ثلاث ساعات أو أربع على الأكثر فى اليوم والليلة وقد حسبتها ألف مرة فى دراستى للسيرة فلم أجده يوماً واحداً نام أكثر من هذا القدر ، ومن نعم الله التى أكرمه به أنه كان سريع النعاس قادراً عليه إذا أراده فإذا نام نام فى عمق فكانت ساعة نومه بساعات . وفى معركة الخندق وفى أثناء الحصار والخطر والبرد والرياح كان لا يكاد ينام بضع

دقائق حتى يوقظه شيء فينهض وينظر الأمر ثم يعود فلا يكاد ظهره يمس الأرض حتى يسمع غطيطه لينهض بعد ذلك مرات عديدة فى الليلة الواحدة . .

* * *

وكان المسجد ضرورة لأن الصلاة عماد الإسلام ومادامت الجماعة قد قامت فلابد لها من مسجد ولابد أن محمداً رأى أثناء رحلته الثانية إلى الشام بتجارة السيدة خديجة كنائس النصارى وبيع اليهود ، ولكنه عندما شرع فى بناء مسجده أنشأه على نحو جديد لم تعرفه معابد أى دين آخر ، ولا يمكن القول بأن مسجد الرسول فى المدينة كان مسجداً بدائياً لأنه كان منذ البداية مسجداً كاملاً وإن كان بسيط الهيئة فقد ضم من أول الأمر العناصر الأساسية فى المساجد وهى بيت الصلاة والصحن والقبلة والمحراب والمنبر ، فهذه هى العناصر الأساسية وماعدا ذلك مما وجد بعد ذلك فعناصر غير أساسية كالمئذنة والقبة والأعمدة والعقود وما إلى ذلك حتى بساطة مسجد الرسول كانت جزءاً من أصالته وكانت متفقة مع روح الاسلام ومعنى الصلاة وقد استوحى الرسول هيئة مسجده من روح الإسلام فالإسلام فى لبابه طريق بين الله وعباده ، وهذا الطريق ينبغى أن يكون مستقيمًا مباشراً ، وهل هناك طريق أكثر مباشرة من مساحة من الأرض تنظف وتمهد وتسور أو تحاط بسياج أو خندق كما حدث فى مسجد البصرة لكيلا يوغل فى حرمه أحد وتفرش أرضه بشيء نظيف مثل الحصى الصغير (الزلط) أو الحصر فوقها ، وفى هذه المساحة يتجمع المسلمون لإقامة الصلوات فى أوقات محددة ، وتتجه وجوههم وجهة واحدة تجسيداً لوحدة أمة الإسلام . هكذا أنشأ الرسول مسجده . اختار قطعة من الأرض كانت تستعمل مربداً ، أى موضعاً لتجفيف التمر وكان فى تلك الأرض نبات برى كثير أغلبه الغرْقَد وفيه كذلك ماء مستبخل أى مستنقع ، وكانت فيه قبور جاهلية أى قديمة ، فنظف ذلك كله

ومهدت الأرض وحفر أساس المسجد على عمق ثلاث أذرع أى متر و ٧٤ سنتيمترا لأن طول الذراع فى المدينة فى العصر النبوى ٥٨ سنتيمترا . وكان هذا الأساس من الحجر ثم أقيم جدار المسجد من اللبن . وجعل جدار القبلة من الحجر فى الغالب وعلى الجدار فى اتجاه بيت المقدس أى إلى الشمال الغربى حدد موضع المحراب ، أما المنبر فكان درجة من الخشب وربما من اللبن إلى جوار المحراب . . وسقفوا جزءاً من مقدمة المسجد بسقف من سعف وخشب يقوم على جذوع نخل وهذا هو بيت الصلاة ، وكانت مساحة المسجد عندما بنى أول مرة ٣٢٨٠,٨٦ متر فهو مسجد كبير ولابد أن يكون بناؤه قد استغرق شهوراً بخلاف مايفهم من كلام رواتنا ، ونستطيع القول بأن العمل استغرق سبعة شهور على قول وتسعة على قول آخر وهذا هو الأصح وهى المدة التى أقامها الرسول فى بيت أبى أيوب خالد الأنصارى .

وقد جعلت للمسجد ثلاثة أبواب واحد فى يمينه وهو الباب الذى كان يدخل منه الرسول ويسمى باب أبى بكر ، وكان فى شرق المسجد ، وباب ثان يسمى باب الرحمة ، وباب ثالث ، ومما يدل على صلابة البناء أن جانبى باب أبى بكر بنيا بالحجر ويسمى جانبا مداخل المساجد بالعضادتين . .

وبعد قيام المسجد مباشرة بنيت غرف للرسول فى الركن الجنوبى الشرقى وانتقل إليها الرسول . .

وبقيام المسجد أصبح للأمة وجود مادى إلى جانب وجودها المعنوى ، فلم يكن المسجد موضعاً للصلاة فحسب إنما كان موضع اجتماع المسلمين للاستماع إلى خطب الرسول إذا دعاهم الداعى إلى ذلك ، وفيه يتلاقون لقراءة القرآن أو لمجرد الأنس بعضهم ببعض أو لسماع الأخبار ، وبانتقال الرسول ﷺ إلى المسجد أصبح للمسجد معنى سياسى أيضا فهنا يقيم رئيس الأمة ونبيها ورسول الله ، من هنا تدبر أمور الجماعة كلها . .

فى أثناء بناء المسجد تمت خطوات أخرى سنتحدث عنها فى أحاديث قادمة . ولكن الذى يهمنا هو أن نرى كيف كانت الأمة تبنى معنوياً ومادياً خطوة خطوة ، ففى ذلك الحين كانت آيات سورة البقرة ثم آل عمران تتنزل على رسول الله ، والبقرة ـ كما يقول المفسرون ـ سنام القرآن أى قمته وهى سورة طويلة متعددة الموضوعات وفيها عناصر كثيرة من عناصر تكوين الأمة سنشير إليها فى مواضعها ، وكذلك سورة آل عمران ، ومن المحقق أنها أنزلت بعد البقرة وهما معا تسميان الزهراوين أى الزهرتين والتسمية رمز على شجرة الأمة الحية التى كانت تنمو وتعلو رويداً رويداً .

وقبل أن أختم هذا الحديث أشير إلى أسطورة أخرى فإن رواتنا يقولون إن أرض المسجد كانت ملكاً لغلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة وقد ساومهما الرسول ودفع لهما ماطلباه وعندما نحقق الأمر نجد أن ذلك غير صحيح فواحد من هذين الغلامين سيشارك فى موقعة بدر . وبدر كانت فى ١٩ رمضان سنة ٢ للهجرة فكيف يشترك واحد من الغلامين فيها وهو يتيم صغير فى حجر أبى أمامة أسعد بن زرارة ؟ ولكن المؤكد أن الرسول اشترى أرض المسجد ودفع ثمنها .

* * *

إننا نزيل الأساطير وهى أجمل مافى التاريخ ، وقد قال ميشيليه المؤرخ الفرنسى البليغ : إن التاريخ قسمان قسم جميل وهو الأساطير وقسم غير جميل وهو الوقائع وعملنا نحن المؤرخين هو القضاء على النصف الجميل والإبقاء على النصف غير الجميل ويالها من مهمة ثقيلة . .